

مُلخص كتاب " نحو مقارنة دنيوية للنزاعات في الشرق الأوسط "

تحليل ظاهرة توظيف الدين في السياسة الدولية

د. جورج قرم



مركز رؤية للدراسات الاستراتيجية

- يجب أن يتم العمل على إعادة إحياء التحليل " الديني " للأحداث، نظراً لأن الاعتماد على التحليل " الديني " قد تسبب في حدوث العديد من الاشتباكات والتقاطعات.
- من الخطأ الاعتماد على عوامل ثنائية أثناء تحليل الصراع، فتحليل الصراع يتوجب أن يعتمد على مسارات متعددة، جغرافية، بشرية، اقتصادية، هوية، عرقية، دينية.
- ساهم الاستعمار في إحداث حالة من الفراغ عندما قرر الانسحاب من هذه الدول، وهي المناطق التي كانت مؤهلة لاستقبال العديد من الأفكار الأيديولوجية.
- من الخطأ استخدام مصطلح " إحياء الدين، أو عودة الدين "، فالدين قديم قدم الكون، متمثل في ديانات ما قبل التوحيد وديانات التوحيد، بالإضافة إلى أن الدين كان من أهم الفاعلين الحاضرين على الساحة، فمن خلاله تم القضاء على الشيوعية، وبه قامت الثورة الإيرانية، كما عمل الإنجليز في أمريكا على إعادة إحياء تقاليد اصولية بروتستانتية قديمة.
- إن اللجوء إلى الدين يُضعف بشكل كبير التفكير اللاهوتي والسياسي على السواء، ويؤدي إلى قراءة حرفية للنصوص الدينية بغرض تبرير وإضفاء الشرعية على الأعمال السياسية الدنيوية.
- في القرن العشرين انتصرت العلمانية، بانتصار الثورات القومية، وصعود رؤساء مثل جمال عبد الناصر وصادق حسين إلى سدة الحكم، وانهارت الدولة العثمانية، وتم تأسيس إمبراطورية علمانية كالهند، إلا أن التحالف الأمريكي السعودي قد عمل على القضاء على هذه القوى الجديدة.
- ساهم قيام الدول على أسس دينية إلى تفكيكها. مثل تفكك الهند إلى بنغلاديش وباكستان، وتفكك يوغسلافيا 1992، من خلال الانفصال الذي تم على اسس واعتبارات دينية محضة بغية ضرب الصرب الأرثوذكس عن الكرواتيين والسفوانين الكاثوليك، وكذلك فصل مسلمي البوسنة والكوستوفو.

- من مميزات النظام العلماني التأكيد على الإنسانية، وعدم وجود أفضلية لحضارة على أخرى، وإنشاء فضاء عام مستقل عن الداء الخاص يسمح بنشر المواطنة، والسعي الدؤوب وراء المصلحة العامة داخل المجتمعات وبين المجتمعات.
- الدين يطبع بطابعة الثقافة واللغة والأعراف والأخلاق. ولا يتسنى للعلمانية أن تمحو هذا التأثير أو هذا التراث. لكن الدين ليس سوى عامل من العوامل التي تساهم في صنع الشخصية الجماعية لأي مجتمع بشري.
- من أسباب النظرة السلبية للعلمانية هو أنه ينظر الى مفهوم العلمانية كنظرية إحد ومعاداة لرجال الدين، كما هو السائد في نظر الكاثوليك، وهي نفس النظرة السائدة بشأن العلمانية لدى الأحزاب الإسلامية. لذا فإن إدراك بعض السلطويات الدور الذي تقوم به العلمانية في وضع حد للاستبداد باسم الدين هو المحرك الأساسي للتصدي للعلمانية.
- التنوع البشري والثراء الثقافي والديني لمنطقة الشرق الوسط قد ساهم في جعله منطقة " الأساطير "، وجعلته منطقة تضارب الهوية الدينية والأيدولوجيات المختلفة.
- الولايات المتحدة تعيش في مأزق ديني يخسف بأفكارها ونورها الحضاري الأرض، فالدعم المكثف الذي تتلقاه إسرائيل من قبل الولايات المتحدة واوروبا يضع على المحك مصداقية التيارات العلمانية.
- كانت هزيمة الجيوش العربية في 67 ثم الحضور القوي للملكة العربية السعودية والثورة الإيرانية من أهم العوامل الرئيسية في التراجع السريع للقومية العربية ذات الطابع الوضعي العلماني، حيث روجت السعودية للصحة الإسلامية التي نظرت للعلمانية على أنها مؤامرة غربية لسلب المجتمعات الإسلامية شخصيتها ومنعها من استعادة اصالتها.

## الفصل الأول

### مقدمات للمقاربة الدنيوية في تحليل الصراعات.

#### إعادة إحياء التحليل الدنيوي.

إن التحليل الدنيوي لأسباب الصراعات يميل بدوره إلى الاختفاء من حقل المعارف الأكاديمية، التي يزداد تركيزها على عوامل يُشار لها بشكل خاطئ بعودة الدين أو العرق، وهي العوامل التي باتت تتخذ المرتبة الأولى في تفسير الصراعات والحروب.

التحليل الدنيوي هو ذاك التحليل الذي ينفي مقارنة الصراعات من المنظور " الأنثروبولوجي " الديني أو العرقي، أو بتحديد عامل واحد أو مذهب واحد مسؤول عن الصراعات. لذا تسعى هذه الدراسة أو " المقاربة " إلى استعادة معرفة الأسباب الحقيقية للصراعات التي نجد جذورها في تاريخ مختلف المجتمعات. كما تعتمد هذه المقاربة على حقيقة أن الصراع بين مجتمعين أو بين مجموعة مجتمعات هو دائماً نتيجة التطورات الداخلية في كل من المجتمعات المعنية.

#### الابتعاد عن الرؤى الثنائية.

يجب على المرء أن يميز بين نظامي تفسير مُبسطين " ذاك الناجم عن رؤية ثنائية للعالم بين " أختيار " و " أشرار " وذاك الذي يرى عاملاً وحيداً للصراع، ففي الحالة الأولى نقع ضحايا الدعاية القائلة بسيادة النموذج الأمريكي، فتتولد لدينا حالة من اللام مانعه للرضوخ للسيادة الأمريكية.

#### التحليل المتعدد العوامل لأسباب الصراع.

يتطلب النهج السياسي الدنيوي في التحليل مراجعة كل العوامل التي أدت إلى نشوء الصراع، إذا استعرض العوامل الديموغرافية والجغرافية والاقتصادية والتاريخية والعقائدية التي أسست لبنة الصراع.

فالغزارة السكانية، تماماً كالاختفاء السكاني وانحساره، هي أحد الأسباب الرئيسية للحروب والصراعات، فالمساحات الضيقة وعدد السكان الكبير والموارد الأقل أدت إلى نشوب الحروب الصليبية، وهو نفس الهدف الذي دفع الاستعمار إلى خارج أوروبا، كما أن الخوف من الانخفاض السكاني يشجع الأمة على التفكير في الحروب. كما أن التوزيع الغير عادل للموارد

بين سكان مجتمع متناسخ الظروف لنشوء صراع داخلي قد يتجنبه الحكام بتحويله إلى صراع خارجي أو بإرسال الشباب ليحاربوا في صراعات أخرى.

كما أن العامل الاقتصادي هو بلا شك العامل السائد في الصراع، فالاستيلاء على الموارد والثروات المادية والسيطرة على الطرق التجارية والإستراتيجية واستملاك الربيع الاقتصادي، تلك هي الأسباب الأكثر شيوعاً والمألوفة جداً للحروب والصراعات، وكانت نظرية " التجارة الناعمة " التي تقدم بها " مونتسكيو " والليبراليون الإنجليز لم تكن سوى غطاء للإمبريالية الاقتصادية التي تتميز بها حياة الأمم.

يتوجب الاعتراف بأهمية الجغرافيا في نشوب الصراع، فالولايات المتحدة تتصرف في الشرق الأوسط كما وأنها صاحبة الأمر والنهي، وتستنكر رغبة روسيا إذا أرادت القيام بتحريك ماثل، ويواصل المجتمع الدولي الحديث عن " إقامة الدولتين " إلا أنهم إذا كلفوا أنفسهم عناء النظر إلى سياسة الاستيطان، سيدركون فوراً أن ولادة هذه الدولة استحالة جغرافية.

### ازدراء التاريخ بوصفه عاملاً إيضاحياً لتهميج الخصم.

لا نجد ازدراء للتاريخ، في أي مكان، في العالم، أعظم مما نجد في وصف الصراع الإسرائيلي العربي، حيث تدفقت الأدبيات الغربية عن هذه القضية لتنتقل، بطريقة رهيبه، العداة الذي تعرضت له الطائفة اليهودية في أوروبا على يد النازية، عداة يمكن أن يفهم تماماً لو وجه ضد الألمان وغيرهم من الأوروبيين، لكنه تبلور في مكان آخر، ضد الفلسطينيين والعرب.

إن قضايا الدين والثقافة والحضارة التي غالباً ما يتم التذرع بها ليست إلا بقايا أسباب الصراعات، لكنها في الواقع تشكل في أغلب الأحيان طرائق التعبير عن الصراعات، التي تسمح بحجب الأسباب الدنيوية، ومع ذلك فهي للأسف تحتل جل الفضاء الأكاديمي والإعلامي، إنها أسباب أنثروبولوجي ذات طبيعة جورانية. حشو دون أية قيمة تفسيرية. في المقابل، تستخدم هذه الأسباب بقوة كبيرة وبطريقة تكرارية إلى حد الهوس إذ لديها القدرة على إقناع الرأي العام وتعبئته لدعم مواقف الحكومات والجماعات التي تشعل فتيل الصراع.

هناك حاجة ملحة لوجود " عدو مخيف " وهنا يتم ازدراء التاريخ ، فوجود العدو يبرر الحفاظ على زيادة التسليح وعلى نفوذ دولي غالب ، حيث أنه أصبح شائعاً أن نقول بأن الولايات المتحدة باتت في حاجة لعدو بعد زوال الإتحاد السوفيتي ، من شأنه أن يبرر سيطرتها على أوروبا وبلدان العالم الثالث ، وكانت أطروحة حرب الحضارات وتطوير نظريات الإرهاب كشر وحيد

مطلق ، توجد بؤرته الرئيسية في العالم الإسلامي والدين الإسلامي ، ساعد على خلق عدو على مستوى المطامع الأمريكية في قيادة العالم وتحريره من " قوى الشر " الجديدة ، التي ظهرت حالما اختفى خطر " التخريب الشيوعي " .

### انبعاث الافكار الأرستقراطية والسلطوية.

هناك حينين إلى الشعور الطبقي والخصوصيات الإثنية ووجود فئات اجتماعية نبيلة تحتكر الموارد، سواء كانت " نبالة " الفكر أو المال أو المنشأ؟ أليس هذا الحنين الذي عاد يسيطر على المشهد السياسي والفكري تحت ستار اكتمال الديمقراطية؟

إن التراث الفرنسي الذي وضع قيد التنفيذ مبادئ الفلاسفة الإنجليز ومبادئ فلسفة الأنوار، قد أعطى للعالم الأدوات السياسية والقانونية لتحرير الشعوب والطبقات الاجتماعية؛ في حين تعزز النيو ليبرالية اليوم عودة الفروق والطبقات الاجتماعية وصناعة الامتيازات التي غالباً لا تبررها أية جدارة حقيقة. إن أيديولوجية " العولمة " الاقتصادية التي تدعى الانتساب لمونتسكيو وأدم سميث الليبرالية تتوج البناء الأيديولوجي الجديد المعادي للفلسفة الإنسانية التقليدية. في الواقع تزدهر " العولمة " على حساب " المتاجرة " بالفروق، عرقية كانت أم دينية، أم متصلة بأغوار المال والثروات التي تفصل الطبقات الاجتماعية الجديدة. إن منطق الفردانية يستخدم الآن لإضفاء الشرعية على إرساء الفروق بين البشر في تعبيراتهم الأكثر فظاظة وابتذالاً، كما أن الثوب الديمقراطي بات يُستخدم لإضفاء الشرعية على تهميم القيم الجمهورية القديمة.

### الدمار الناجم عن الفترة الاستعمارية.

بعد عدة عقود على انتهاء الاستعمار وفي عالم ما بعد الحرب الباردة؛ تعاني اليوم بعض المناطق في العالم، خصوصاً تلك التي فككها الاستعمار، فراغاً في القوة، متمثل في حالة البلقان وإفريقيا وجنوب الصحراء وأجزاء كبيرة من الشرق الأوسط، حيث تحاول الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أي وقت مضى ملء فراغ القوة لا سيما وأن العدو السوفييتي قد زال، وفي الشرق الأوسط أدى تفتيت المجتمعات العربية إلى عدد من الدول الضعيفة المعادية غالباً لبعضها البعض إلى الانتشار الإمبريالي الأمريكي.

### دول ذات مكونات ناقصة نشأت في حالات صراع لا يزال قائماً.

سبب آخر للصراعات الكبرى هو وجود دول نشأت في ظروف نزاع، وهي غير قادرة على البقاء إلا في ظل استمرار أليات التنزاع. تلك هي حالة دولة إسرائيل ودولة باكستان اللتين نشأتا انطلاقاً من رفض قبولهما التعايش الديني التعددي، وكذلك الدولة السعودية التي بُنيت بفضل الغزو العسكري للأماكن المقدسة، والتي تسعى إلى فرض العقيدة الوهابية المحافظة

والمتشددة إلى أبعد الحدود، فالعائلة المالكة ورجال الدين يمارسون معاً ديكتاتورية أخلاقية شديدة الوطأة، وإلى جانب هذا يطالبون ببسط نفوذهم على المجتمعات الإسلامية كافة، وهي في الوقت ذاته الحليف الرئيسي لأمريكا بالمنطقة.

### فائدة المقاربة الدنيوية للصراعات.

إن مقارنة الصراعات من خلال نَهج وتقنيات العلوم السياسية الكلاسيكية التي تستدعي التحليل المتعدد العوامل وتحديد السياقات والمعرفة الدقيقة للتاريخ هي وحده القادرة على أن تعارض تطور انتشار المفردات والتراكيب الأسطورية التي تمنح شرعية كاذبة وسهلة للحروب والصراعات. في كثير من الأحيان لا يتقيد المثقفون والباحثون بهذه الاحتياطات بل يتماهون مع شعارات وسياسات القوى التي هي مصدر انفجار الصراعات.

# أوية

للدراستات الاستراتيجية  
ROAYAH FOR STRATEGIC STUDIES

## الفصل الثاني

### الصراعات الجديدة ووظيفة " عودة الدين "

من الغريب حقاً أن اكتسبت عبارة " عودة الدين " هذا الرواج دون حتى أن نسأل عن معناها ووظيفتها، لذلك من الضروري أن نطرح عدد من الأسئلة الأولية قبل محاولة فهم واقع هذه الظاهرة، التي قد تكون خيالية أكثر منها واقعية.

#### تشخيص خاطئ لاختفاء الدين ومظاهره

إن الحديث عن عودة الدين يعنى وجوب غياب. غير أن ما من شيء قابل للجدال مثل هذا التأكيد، للأسباب التالية:

- أن الدين قديم قدم الكون، ويتم استخدامه دائماً. فعلى الرغم من أن المسيحية قد اكتسبت صه علمانية تدريجياً إلا أنها أنجبت أشكالاً أخرى من المعتقدات تظل دينية أيضاً. وفي الولايات المتحدة لم يتوقف التدين على أن يكون أحد سمات المجتمع الأمريكي، وكذلك في مجتمعات الشرق الأقصى والهند والعالم الإسلامي. بعدما كانت اليهودية ديناً منبوذاً في أوروبا، فإن الدين اليهودي قد ساهم في إنشاء إسرائيل 1948. يبدو أنه من الأصح القول بأن " الأديان تشهد تغييرات متوازية مع التغييرات التاريخية "
- الدين دائماً من أكثر الفاعلين الحاضرين على الساحة، فالولايات المتحدة كانت قد عبأت الأديان الرئيسية لمكافحة أنواع الأيديولوجيا الشيوعية، واستخدم ريجان اصطلاحاً دينياً في وصفها " إمبراطورية الشر "، ولم تتردد الولايات المتحدة في استدعاء الحركات الأصولية التابعة للسعودية وباكستان وتمويلها وتسليحها تحت راية " الجهاد ". كما تزعزع نظام الشاة في إيران على يد رجال الدين. وفي نفس السنة 1979 احتفل " كارتر " بذكرى الإبادة الجماعية لليهود، وأصبحت المحرقة ذكرى لفتح ملف الإبادة لأصحاب الدين اليهودي. وإثر انفجار أسعار النفط 1973 أنشأت السعودية منظمة المؤتمر الإسلامي، وهي أول مؤسسة دولية تجتمع على أساس الانتماء الديني. ومنذ ذلك الحين أصبحت الأدبيات التي تتناول الإسلام والحركات السلامية حاضرة ومزدهرة في كل مكان بالعالم. وفي الولايات المتحدة عمل " الإنجيليين الجدد " على إحياء تقاليد أمريكية قديمة تابعة لأصولية دينية من أصل بروتستانتية 1990



## اللجوء إلى الدين يؤدي إلى إضعاف مزدوج الجانب " ديني وسياسي "

إن اللجوء إلى الدين يُضعف بشكل كبير التفكير اللاهوتي والسياسي على السواء، ويؤدي إلى قراءة حرفية للنصوص الدينية بغرض تبرير وإضفاء الشرعية على الأعمال السياسية الدنيوية التي تستوجب اللوم الشديد من وجهة نظر المبادئ الحديثة للإنسانية والقانون الدولي.

كلما زاد انتهاك القانون الدولي سواء في بعده المتعلق بحقوق الإنسان، أو حتى الأمم كلما ازدادت حدة راديكالية الخطاب السياسي الذي يستخدم القيم الدينية أو شبه الدينية، خصوصاً القيم اليهودية المسيحية من جهة والقيم الإسلامية من جهة أخرى، وهذه الرؤية الثنائية للعالم تهدد بالانفجار وتنبئ بأعمال عنف أكثر وحشية، وهي ليست إلا تعبير عن أزمات شعرية خطيرة تصيب المجتمعات التوحيدية بصورة حادي جداً. أما فيما يتعلق بالنظام الداخلي لهذه المجتمعات نسهد ظاهرة اللجوء نفسها إلى الدين، خصوصاً في المجتمعات الشيوعية السابقة، ومجتمعات العالم الثالث.

في البلدان الغربية الغنية، ساعدت آثار العولمة الاقتصادية وتقليص دور الدولة تجاه الفئات الفقيرة على تموضع المؤسسات الدينية كما تشتهى واستعادة دور موزع المساعدات الخيرية الذي كانت ترتقيه، وأصبح الدين قضية رائجة ومثيرة في وسائل الإعلام. ولهذا يبقى للقانون الدولي دورة في إصلاح ما تهمتك، ولكن بشرط أن يطبق على الجميع وينصف الجميع.

للدراستات الاستراتيجية  
ROYAH FOR STRATEGIC STUDIES

## الفصل الثالث

### الدين والجيوسياسية: علاقة منحرفة

#### تعددية وثنية وإقصائية توحيدية

إن البنية اللاهوتية الوثنية تقبل بسهولة إدماج الهة الشعوب المغلوبة أو المهزومة أو تلك التي دخلت في فلك سلطة إمبريالية، في حين أن بنية الديانات التوحيدية تحظر مثل ترتيبات كهذه، فالإيمان بالة واحد يرفض في الواقع كل أشكال التحالف أو التوفيق أو الشراكة في المعتقدات والالهة التي تكرمها شعوب عديدة.

كما أن الديانات المبينة على كتاب مقدس تُستخدم بطريقة مريعة كأداة سلطة داخلية وغزو الشعوب باسم الدين وسلام البشرية. ولأن " الكتاب " هو من المفترض كلام الله الواحد ووصاياه من أجل إقامة الخير والعدل ويعتبر الاعتراض عليه تحدياً لنظام العالم القائم كما أرادة الخالق، وبالتالي فإن السلطة التي تدعى الحفاظ على النظام باسم " الكتاب " سواء كان العهد القديم أو الإنجيل أو القرآن، وجدت فيه الوسيلة المثلى التي تؤهلها سلب العقول والسيطرة عليها.

#### الدين خاضع لمنغير الزمان والمكان

إن ممارسة الدين هي من فعل الإنسان، وبالتالي متغيرة في المكان والزمان. لذلك فإن الدين ليس كتلة جامدة من العقائد وممارسة للشعائر وتفسير النصوص المقدسة، وضعت للأبد، خصوصاً لدى المسيحية والإسلام اللذان شهدا تغييرات شديدة، فالمسيحية في بداياتها تختلف كلياً عن مسيحية البابوية في أوج سلطتها. والأمر نفسه بالنسبة إلى الدين الإسلامي، حيث أن حرية تفسير النص القران أدت في البداية ازدهار التفاسير والمدارس الفلسفية الروحانية وأنواع من الممارسات الطقوسية. والحال نفسه أيضاً بالنسبة إلى اليهودية، حيث لم يفتها أن تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة تبعاً للمراحل التاريخية وأماكن توطنها الجغرافية.

#### انتصار العلمانية المؤقت في القرن العشرين

يعد القرن العشرين هو قرن انتصار العلمانية، وازدهار الأهمية العالمية، كما نادى بها " إيمانويل كانت " من خلال تأسيس عصبة الأمم ثم منظمة الأمم المتحدة، وهو القرن الذي اندلعت فيه ثورات حدائوية. والقرن الذي ألغيت فيه الخلافة التركية العثمانية، وقرن الإصلاح الديني الذي تخلت فيه معظم البلدان العربية عن أنظمة التعليم المكرسة لدراسة القران والشريعة ليطم

استبدالها بأنظمة حديثة. وهو أيضاً القرن الذي انهارت فيه إمبراطورية السماء في الصين، وتم تأسيس إمبراطورية علمانية في الهند على ركام إمبراطورية المغول. وكذلك القرن الذي اتحدت فيه البلدان المستقلة حديثاً عن مستعمرها ضمن حركة " عدم الانحياز " وظهور قيادات ذات خلفيات ثورية كتيو وتصار وغاندي وسوكرانو. ولم تكن الولايات المتحدة في عصر أيزنهاور ونيكسون وكنيدي أو جونسون تُظهر حماساً دينياً خالصاً، ولم يكن ديجول أو كونراد أديناور يستدعيان القيم الدينية. لذلك من المفيد الوقوف على الأسباب التي أبطلت انتصار الوجهة العلمانية للعالم، وهي:

- نجاح الوهابية، عندما ركزت السعودية على أيديولوجية دينية كافحت الإسلام الإصلاحية التنويرية.
- انفصال مسلمي الهند إلى باكستان وبنغلاديش، وإثر انقلاب " ضياء الحق " طبقت باكستان قانون الشريعة الإسلامية وأصبحت تابعاً للسعودية والجولات المتحدة.
- الصهيونية وقيام دولة إسرائيل وأثر هذا الحدث على تعقيد الصراع بالاعتماد على مركز ديني.
- تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي، التي جاءت لتنافس حركة " عدم الانحياز " وجامعة الدول العربية.
- ساعد المدد السوفييتي في إيجاد الدافع لدى السعودية في تجييش الشعور الإسلامي.
- الثورة الإيرانية التي قامت بتعبئة " الإسلام الشيعي ".
- الإحياء الكاثوليكي الذي انطلق من بولندا، وبرز دور الإنجيليين الأمريكيين.
- ازدهار نفوذ حركة " المحافظين الأجلوسكسونية " التي أفسدت فيما بعد القارة الأوروبية.

## الفصل الرابع

### عصر الهويات المتوقعة والانتقال العالمي إلى تجمعات طوائفية

#### العلمانية والدينيوية: مفهومان متناقضان

الدينيوية مفهوم أنجلوسكسونية وألماني مستوحى بصورة عامة من قيم الكنائس البروتستانتية، وهو أكثر مرونة ومراعاة للدين من نموذج " العلمانية " المستلهم من الثورة الفرنسية في فصل الدين عن الدولة. يبدو أن الدينيوية قد حققت توازناً أفضل بين إجلال الإيمان والحرية الفردية من العلمانية الفرنسية. فهدة الأخيرة لم تتوصل في الواقع إلى التخلص من تهمة معاداة رجال الدين وعدم احترام القيم والمعتقدات الدينية.

تصارع كل من مفهومي " الدينيوية " و " العلمانية " وسجل التاريخ أحداثاً كثيرة لهذا الصراع. لكن للمفارقة، بدلاً من أن يقضى هذا التشردم إلى إضعاف الدور المركزي للدين في الحياة السياسية والاجتماعية، فقد أدى إلى تكثيفه. فالكاثوليكية الرومانية كانت قد فصلت رجال الدين عن بقية أفراد المجتمع، وقامت البروتستانتية بإزالة الطابع المقدس عن ممتلكات الكنيسة الرومانية التي استولت عليها طبقة النبلاء. أفضى هذا التطور، بشكل منطقي جداً إلى إدماج المجتمع الديني في المجتمع المدني اجتماعياً واقتصادياً في الدول المعتمدة للمعتقدات البروتستانتية وكنائسها.

فضلاً عن ذلك، لم تتمكن القومية الإنجليزية او الأمريكية من التحرر من الفكرة الدينية القائمة على اصطفاء الله هذين الشعبين وقدرهما في السمو والفتح، حيث أرسى " كلفين " في جنيف نظاماً دينياً استبدادياً توحدت فيه السلطة الدينية والسلطة الزمنية بشكل مطلق. أما في إنجلترا، فقد أصبحت الكنيسة الإنجليكية كنيسة المملكة الرسمية.

#### أسباب النظرة السلبية للعلمانية

إن العلمانية الفرنسية نتاج تاريخ مضطرب ومتداخل من الأحداث، حيث تألق فرنسا، منارة التغيير والتحول السياسي والتحول الديمقراطي في أوروبا أمن للعلمانية انتشاراً واسعاً وحظوة كبيرة في البلدان الأوروبية الأخرى. ولقد بقيت هذه المنزلة ذات حدين إلى يومنا هذا، إذا غالباً ما يساوى بين هذا النموذج الفرنسي وبين حلقات تاريخية قصيرة جدا اضطهد خلالها

الإكليروس في فرنسا، أو بين بعض المراحل الثورية خارج فرنسا، كما جرى في روسيا البلشفية عندما منعت الشعائر الدينية. فضلاً عن ذلك ينظر الى مفهوم العلمانية كنظرية إحد ومعاداة لرجال الدين، كما هو السائد في نظر الكاثوليك، وهي نفس النظرة السائدة بشأن العلمانية لدى الأحزاب الإسلامية. لذا فإن إدراك بعض السلطويات الدور الذي تقوم به العلمانية في وضع حد للاستبداد باسم الدين هو المحرك الأساسي للتصدي للعلمانية.

### مزاي النظام العلماني

- التأكيد على الإنسانية، وعدم وجود أفضلية لحضارة على أخرى، فخلف كل حضارة رجال يتساوون في إنسانيتهم، أي كانت الخصوصيات الأنثروبولوجي والتاريخية.
- إنشاء فضاء عام مستقل عن الداء الخاص يسمح بنشر المواطنة، حيث أن الفصل بين الفضائين والخاص يسمح بنشر المواطنة، فالفضاء الخاص يوفر خصوصيات الهوية والدين واللغة ويحميها، أما الفضاء العام فيسمح بانطلاق الأفراد وتدشين علاقات بالمحيط الخارجي.
- السعي الدؤوب وراء المصلحة العامة داخل المجتمعات وبين المجتمعات.

### الخلط السافر بين الدين والسياسة في شبكة تفسير الصراعات في الشرق الأوسط

باتت الصراعات المتكررة التي تمزق منطقة الشرق الأوسط تُفسر من خلال شبكة تمزج بشكل صارخ استدعاء القيم الدينية في عرض المعطيات وتحليلها، الأمر الذي يساهم في شل الحس النقدي لدى المواطن فيما يخص سياسة الحكومة. بالإضافة إلى أن شرائح واسعة من الفكر الفلسفي الأوروبي الحديث، وإن علمنة ن قد احتفظت بطريقة تفكير ترتكز على النموذج التوراتي.

على الرغم من أن حركة القومية العربية التي ناضلت في الشرق الأوسط كانت خالية من أي صبغة دينية، وعلى الرغم من أن مؤتمر دول عدم الانحياز وسياسات الرئيس جمال عبد الناصر قد اتبعت فكراً علمانياً مبنياً على مبادئ الثورة لا فرنسية، إلا أن هذه المساهمة في نشر الفكر العلماني قد تم التصدي لها من خلال سلسلة من العوامل المناوئة التي حفزت إرساء القيم الدينية في الجيوسياسية الدولية.

حيث أدت هذه الدينامية في الضفة الشرقية للبحر المتوسط إلى تفكك يوغسلافيا 1992، الانفصال الذي تم على اسس واعتبارات دينية محضة بغية ضرب الصرب الأرثوذكس عن الكرواتيين والسفوانين الكاثوليك، وكذلك فصل مسلمي البوسنة والكوسوفو.

## الفصل الخامس

### تصدير النزاع حول الجذور في بناء أسطورة الهوية الغربية

#### الغرب: هوية عملاقة متناقضة وأسطورية

إن أسطورة وجود هوية عملاقة، تُسمى " غربية " تنطوي على الإيمان الميتافيزيقي والعقائدي في واقع وحدة الحضارة والقيم العرقية والاخلاقية القوية ووحدة المصالح بين شعوب عديدة على الرغم من انتمائها إلى ثقافات ولغات بل إلى ممارسات دينية مختلفة.

كيف يمكن لهذا الكم من التنوع أن ينتج شعور انتماء إلى هذه الهوية العملاقة التي تُسمى " الغرب "؟ هل الغرب واقع حقيقي، وسلسلة متصلة من القيم والسلوكيات تعود إلى عصور تاريخية نائية؟ أم هو بناء أسطوري أكثر منه حقيقي، لكنه كغبرة من الأساطير، يمار وظائف ضرورية لحياة المجتمعات؟

من المفيد أن نذكر أن الأصل التاريخي الحقيقي لمفهوم الغرب، الذي لا يمكن له أن يتحقق إلا بالتعارض مع مفهوم الشرق، يكمن في حدث سياسي دنيوي محض واقع داخل المنطقة الحضارية نفسها التي سينظر إليها فيما بعد على أنها محط أصول الغرب. وهي القطيعة التي حدثت داخل الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي بين إمبراطورية شرقية عاصمتها القسطنطينية وأخرى غربية عاصمتها روما. لذلك من الضروري أن ندرك بان الشرخ (غرب / شرق) حدث في قلب المنطقة الثقافية اليونانية الرومانية التي سيطر عليها الدين المسيحي الجديد، أي أنه لا يرتبط بأي شكل من الأشكال بالازدواجية القديمة بين اليوناني البربري أو بظهور الإسلام ومجيء الفتوحات الإسلامية.

في الواقع، لم يتطور هذا المفهوم ولم يُعمم إلا بعد لا حرب العالمية الثانية، فالولايات المتحدة هي التي استخدمته بشكل مكثف وعاطفي في صراعها ضد الأيديولوجية الماركسية وسيطرة الإتحاد السوفيتي، ليتم صناعة مفهوم الصراع بين الشرق السوفياتي المستبد والغرب الليبرالي الديمقراطي. ومع انهيار الإتحاد السوفياتي، فإن الخطر يقع هذه المرة بالنسبة إلى الغرب في العالم الإسلامي العربي. ولا يمكن إنكار دور كل من الفيلسوف الألماني فريدريش هيغل وعالم الاجتماع ماكس فيبر دور الأكبر في بناء فلسفة ومفهوم الغرب الحديث، حيث أشارا إلى العبقرية الخاصة بالحضارة الأوروبية ودورها في الصعود العالمي.

رويداً رويداً، ومع بداية الثمانينات ن طراً تغيير على طبيعة الجذور لتسويغ وحدة الغرب. إذ تلاشى بسرعة ذكر الجذور اليونانية الرومانية ذات الطبيعة الدنيوية لصالح استحضر الجذور اليهودية المسيحية ليتعزز مفهوم ديني جديد للغرب.



#### الشرق الأوسط، مفترق طرق إستراتيجي ومخزون طاقة، جُرد من مصيره

إن التنوع البشري والثراء الثقافي والديني لمنطقة الشرق الوسط قد ساهم في جعله منطقة " الأساطير ". بالإضافة إلى ظهور العديد من التحولات والأحداث التي ساهمت في تدعيم ظاهرة " عودة الدين " ومنها سقوط حائط برلين، والثورة الإيرانية التي اعتبرها البعض إعادة بزوغ لفجر الإسلام، ووجود كل الأماكن المقدسة في هذه المنطقة. الأمر الذي ساهم في تأجيج الصراع الذي بدا وكأنه صراع صليبي جديد. كما كانت ثروات هذه المنطقة وموقعها الجغرافي وبالأعلى عليها دائماً حتى باتت مطمعاً للجميع، في نفس الوقت الذي لا تستطيع الدفاع فيه عن نفسها. بخلاف الصراعات التي اندلعت أيضاً بين دول متشابهة أيديولوجياً، بالإضافة إلى الصراع داخل الدولة الواحدة.

#### الذاكرة ضد التاريخ

نشأت الحركة الاممية الإسلامية الحديثة في القرن التاسع عشر بهدف مقاومة أيديولوجية الغرب بدعم من الدولة العثمانية، لكن هذه الحركة المعادية للاستعمار كانت متأثرة إلى حد كبير بأفكار فلسفة الأنوار ومبادئ الثورة الفرنسية. وانطلاقاً من هذه المبادئ تحاطبت الحركة الإسلامية مع الأوروبيين وحثت على إتباع توجه إصلاحية لتخليص الإسلام من الألفات والخرافات التي ساهمت في انحطاط المجتمع الإسلامي، ومع انهيار الدولة العثمانية اختفت هذه الحركة وخلفتها حركات قومية مختلفة تتبنى طابع علماني راديكالي مثل " الكمالية " أو التي تعتمد على ماضوية البلد مثل " مصر الفرعونية ولبنان الفينيقية ....) وبقي البعض متمسكاً بالمرجعية الدينية مثل الإخوان المسلمين والحركة السلامية في الهند والباكستان.

إلا أن ازدهار الحركة الإسلامية هذه المرة في السبعينات كان رافضاً لأي محاولة للانفتاح على افكار الحداثة الأوروبية، وساهمت العديد من الأحداث في نضوج هذا النوع من الأيديولوجيا مثل الصفة الدينية للصراع العربي الإسرائيلي وهجمات سبتمبر 2011.



## أثار الصدمات النفسية الكبرى في التاريخ والذاكرة.

إن مصدر الصدمات النفسية القديمة والمتبادلة هي نشوء ذكريات انتقائية مضادة. بالنسبة للأوروبيين، إن الغزوات ذات الصدى الانفعالي الشديد هي غزوات العرب لإسبانيا في القرن الثامن، ثم غزوات الإطراق للبلقاني وأوروبا الوسطى، ومتبقى من غزوات فإنه لم يكن سوى ذكرى بارده.

بالنسبة للعرب، على العكس لقد تراكمت صدماتهم النفسية ذات المصدر الأوروبي. نجد الحروب الصليبية من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، وذكرى طردهم من إسبانيا ومن جنوب أوروبا في الرنا الخامس عشر، وذكرى الاحتلال الاستعماري لأراضيهم من قبل القوى الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وذكرى إنشاء " دولة " إسرائيل والمشاركة الغربية في إجلاء الغزو العراقي عن الكويت، وحرب العراق 2003، بعد أن تم غزو أفغانستان عام 2001، وذلك بخلاف لصدمة الكبرى التي نالت الطرفين، وهي الحرب العالمية التي لن يستطيع أحد التكفير عن خطاياها.

وعندما حاولت أوروبا معالجة الصدمة النازية، فإنها عاجلتها على حساب العرب، من خلال تقديم الدعم المادي والمعنوي لإسرائيل كمحاولة للتخلص من عار النازية، حتى خلقت هذه الصدمة النفسية الكبرى الأوروبية والإسرائيلية، التي تدور إلى اليوم، صدمة في نفسية المجتمعات العربية، إذ ترى هذه الأخيرة نفسها ضحية أحداث ماضوية غير مسؤولة عنها.

## للدراستات الاستراتيجية RESEARCH FOR STRATEGIC STUDIES

### علاج صدمات الذاكرة، ترميم التاريخ

إن تهدئة الصراعات في الشرق الأوسط تنطوي على ضرورة ترويض الذكريات المصدومة التي تتعارض بين ضفتي المتوسط، لهذا يجب أولاً الاعتراف بوجود هذه الذكريات، لهذا يجب الاعتراف بوجود هذه الذكريات ونهجها المؤلم الذي ينجم عنه تعميم وثغرات في الذاكرة، وكذلك إعادة بناء الماضي بطمس التراث المشترك بين أوروبا المسيحية والشرق المسلم، ما أن يتم التسليم بهذا الإشكال، يصبح العلاج يسيراً دون اللجوء إلى التكفير وإنزال اللعنات والعنف المولد للحروب، كما هو الحال الآن.

إننا لو تمكنا من إعادة بناء الجسور مستفيدين من التراث الإغريقي والبيزنطي والروماني، إضافة إلى صلات الوصل واللحمة بين الديانات السماوية الثلاث، ومؤثرات الفلسفة العربية الإسلامية وفلسفة الأنوار الفرنسية، جميعها عوامل تساهم في بناء مستقبل مختلف، شريطة أن يهدى أخيراً الصراع العربي الإسرائيلي.

## الفصل السابع

### فلسطين مصب العواطف الأوروبية والأميركية

#### جذور الدعم غير المشروط لإسرائيل

عندما غزا المتشددون الإنجليز شمال القارة الأمريكية رأوا فيها الأرض الجديدة التي وعد الله بها، لذا لا ينبغي أن نندهش من التشجيع الأمريكي والبريطاني للإسرائيليين في أعمال العنف التي يقومون بها على أرض فلسطين " الموعودة ".

في أوروبا، أصبح وجود اليهودية كبش فداء لجميع العلل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية نتيجة لتفوق العرق الأري على السامي، لذا فإن الإبادة النازية لليهود لم تكن لتتم لولا وجود هذا الملح المعادي للسامية في سائر الثقافات الأوروبية، وهو ما يساعد في فهم لماذا حصلت النازية على الكثير من المعجبين والاتباع للنظرية الوهمية للمؤامرة اليهودية البلشفية، التي حلت محل أسطورة المؤامرة اليهودية الماسونية التي ظهرت بعد الثورة الفرنسية. إلا أن التحول لمؤازرة حق اليهود في التعويض قد بدأ منذ الثمانينات عندما اعترفت الثقافات الأوروبية بهول ما حدث في عمليات الإبادة، ورأت أن أحد مظاهر التطهير إنما تكمن في دعم حقهم في إنشاء وطن يفتنون فيه، ونظمت العديد من المؤتمرات التي تشجب معادة السامية ن وإنشاء يوم دولي لضحايا المحرقة بناء على قرار من الأمم المتحدة عام 2005.

#### مطلب تنفيذ إنسانية صارمة وحقيقية في فلسطين

من الواضح أن الولايات المتحدة عاجزة أمام جماعات الضغط اليهودية في الداخل الأمريكي. وإضافة إلى ذلك لا شيء يسهل هذا الإرهاب الفكري أكثر من اجواء " حرب الحضارات " التي أشاعها صموئيل الفكري" ومناصره، وإذ حصلت هذه الأطروحة الغيبية على العديد من المؤيدين، إذ أنها تعمل على استعادة تقاليد أسس لها " أرنست بيان " الذي كان يرى في الإسلام خطراً كبيراً على أوروبا، واستمالتها اعمال برنارد لويس، لدرجة أن هذه الأطروحة قد وضعت قيد التنفيذ عسكرياً خلال عهد بوش.

ثمة حاجة ملحة لتجنب كل أنواع الخيالات الاستتارة ولاسترجاع وعيها كي تتمكن من إعادة فلسطين إلى أبنائها كافة. بل أن هناك نصلاً لمنع تحول أرض منبع الديانات التوحيدية الثلاث إلى سند " ملكية عقارية حصرية " حسب تعبير الأب بواكيم

مبارك، عالم اللاهوت والتاريخ اللبناني، وذلك لمصلحة الديانة اليهودية. حيث يكون هذا الكفاح من أجل أن تكون هذه الأرض سند ملكية روحية بالتساوي بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

إن إنهاء النظام العنصري " الأب ارتيد "-نظام الفصل العنصري- وحده يسمح بإزالة كل أشكال الإرهاب النفسي والعنف التي عززها بشكل ملحوظ تطبيق نظرية صدام الحضارات. كما أنه يتوجب العمل بفعالية أكبر على تفكيك المنطق المنحرف للعقيدة الأمريكية الأوروبية التي يقوم عليها الدعم لممارسات إسرائيل. ثم ينبغي استعادة التاريخ الدنيوي لفلسطين.



## الفصل الثامن

### الطائفية والتعددية الثقافية مصدر الصراعات

#### تآكل مفهوم المواطنة

إن الأثر اللاذع للعولمة الاقتصادية في المجتمعات كافة، ومانت عنها من اضطرابات اجتماعية-اقتصادية في بقاع الأرض كافة أدى إلى ضعفة المثالية الكامنة وراء كل أشكال التضامن في نظام المواطنة لمصلحة التلاعب بالهوية الأساسية، دينية كانت أم عرقية. هكذا سهلت العولمة " المتاجرة " بمظاهر هذه الهويات من خلال سياسات الذاكرة الناتجة عن الفئات البشرية المغتربة والمهشمة، بهذا يصبح الاختلاف سلعة استهلاكية، عبر التأكيد على الذات ورفض الآخر على الرغم من قرون من العيش المشترك على ارض واحدة. حيث أن عودة العنصر الديني أججت المشاعر وحلت محل التفكير السياسي والأنظمة الأيديولوجية القديمة، بذلك أصبحت مخيفة واستبدادية بمقدار ما كانت عليا الأنظمة الماضية.

#### أسباب بروز سياقات قضية الهوية

- الانحيار التدريجي للأيديولوجيات العالمية والعلمانية منذ أن بدأت المرحلة الأولى للحرب الباردة، وتشجيع الولايات المتحدة للحركات الدينية الأصولية من أجل زعزعة الأحزاب الشيوعية
- ظهور المقاومة الثقافية خصوصاً لهؤلاء المستبعدين من الأنماط الاقتصادية الجديدة التي تعتمد على تداول الثروة.
- شجعت العولمة التقوقع على الهوية كمادة استهلاكية واستثمارها والمتاجرة بها.
- في أوروبا وتحت تأثير الارتفاع الهائل لأعداد المهاجرين، ظهرت قضايا الدين والجنس والثقافة والأقليات المهمشة.

هناك إفراط في استخدام مصطلحات أصبحت قابلة للتبديل والتدليل على ما هو ضرر، مثل قبيلة وطائفة وعرق، حيث كرس على الاجتماع الأمريكي الإفراط في استخدام مصطلح الاختلاف المسمى "عرقى"، وتلذذ الكتاب اللبنانيون في استخدام مصطلح "سيفساء مجتمعية"، وأصبحت الموضة في هذه الأيام استحضار مصطلح "الغريبة"، وهو مصطلح مثير فعلاً للقلق لأنه يعنى غياب الوحدة في الجنس البشرى. وبالتالي، نحن مدفوعون إلى الاعتراف بأننا نعيش بشكل متزايد ليس في عالم "التنوع" وإنما في عالم الاختلافات والغيريات.

### في معنى مصطلح "الحضارة"

لنلاحظ غلاظة عبارة "حضارة غربية" أو "شرقية" لا سيما أن مفهوم الغرب والشرق ينقصه الوضوح، وأن كلنا الهويتين العملاقتين ذواتي الطابع الأسطوري تنطويان على حضارات مختلفة "فرنسية، ألمانية، إيطالية"، من جهة أخرى "إيرانية، تركية، عربية". فماهي الحضارة إن لم تكن الأهداب والفنون التي تنتجها المجتمعات في لغة معينة، وكذلك المؤسسات الاجتماعية والسياسية الكبرى التي يمكن تصدير جزء من عناصرها إلى مجتمعات أخرى مجاورة لها تماماً، كما يمكن لحضارة ما أن تندمج عناصر من مجتمع آخر. من هذا المنظور تركز كل حضارة على ثقافة، وكل ثقافة تتطلب لغة، هي وسيلة التعبير والتواصل في المجتمع. وترتكز كذلك على مؤسسات سياسية واجتماعية تنقل الثقافة وتعززها. ولولا وجود هذه المؤسسات، لاقتصرت الحضارات على الثقافة، بل في بعض الحالة على الفولكلور، وعلى لغة التعبير عنها فقط.

واليهود ليسوا شعباً إلا في المعنى الروحي للمصطلح، فبين الفلاح اليمنى والحرفى المغربى أو التاجر الإيطالى أو العراقى أو التركى، وكلهم يهود، وبين الحامى البولندى والمثقف الروسى أو الأملان أو المصرى أو البريطانى أو الأمريكى، وهم يهود كذلك. اختلاف كلى في التربة الثقافية والعرقية؛ لذلك ارادت الصهيونية خلق "أمة" يهودية ذات دولة وطنية دون اعتبار لهذه الاختلافات الثقافية لدى مختلف الطوائف اليهودية في العالم.

### هل يصوغ الدين الثقافة؟

من المؤكد أن الدين يطبع بطابعة الثقافة واللغة والأعراف والأخلاق. ولا يتسنى للعلمانية أن تمحو هذا التأثير أو هذا التراث. لكن الدين ليس سوى عامل من العوامل التي تساهم في صنع الشخصية الجماعية لأي مجتمع بشرى، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالأديان التي تسمى "عالمية" كالمسيحية والاسلام والبوذية.

## الفصل التاسع

### المعركة من أجل الحرية في الشرق الأوسط

#### الحرية: مفهوم عالمي أم خصوصية غربية؟

ثمّة تيار فكري يعتبر أن الحرية الفردية ودولة القانون هما خصائص غربية محضّة ناجمة عن الثورة الفرنسية وأنه من العبث تصدير المؤسسات السياسية الناجمة عنها إلى بلدان ذات بنى أنثروبولوجية تُعتبر مختلفة اختلافاً جوهرياً. وكل مسعى لتحقيق كونية القيم الفلسفية والسياسية هو يوتوبيا خطيرة تقود إلى "حرب حضارات".

#### التراث الثوري الفرنسي وأثره في البنية الثقافية والسياسية للوطن العربي

كان من نتائج الثورة الفرنسية وحملة نابليون على مصر، أن حدثت حالة من الشغف بالحالة الثورية الفرنسية وبالحالة العلمية التي جاء بها نابليون إلى مصر، ولذلك عمل محمد علي لاحقاً على ابتعاث المصريين ومنهم رفاة الطهطاوي الذي عاد هو وغير مصر محاولين إحداث حالة من التغيير في بنية المجتمع المصري الجامد.

إلا أنه بعد مرور 180 عاماً على هذه المحاولات، فإن مفاهيم الحرية الفردية ودولة القانون وحقوق الإنسان لم تستطع أن تترجم فعلياً على أرض الواقع السياسي للمجتمعات العربية، ولا حتى التركية أو الإيرانية. ثمّة تيار مضاد توجد قاعدته في البلدان الآسيوية الكبرى، مثل ماليزيا والصين واندونيسيا أو باكستان، ناهيك عن المملكة العربية السعودية ذات التأثير الهائل، يعتبر أن المفاهيم الغربية في مجال حقوق الإنسان غير قابلة للتكيف مع الشرق الأوسط، لأن نظامه السياسي والاجتماعي يركز على مفاهيم أخرى.

#### الحمى الاستعمارية والتلاعب بالطوائف العرقية والدينية

أدت الحمى الاستعمارية إلى اللجوء إلى مبادئ مناقضة كلياً لمثل الثورة الفرنسية. حيث قام الاستعمار الأوروبي في المتوسط إما بحجة حماية الأقليات، أو بحجة إقامة وطن قومي لليهود، حيث أدرجت بريطانيا في ميثاق الانتداب الذي أقره عصبة الأمم تحقيق "وطن قومي لليهود" هو بدعة في مفاهيم القانون الدولي الحديث الذي لا يتعرف بالأديان كعنصر فاعل أو موضع حق، اللهم إلا في مجال ضمان حرية الضمير أو حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة.

في معركة الأفكار من أجل الحرية والمساواة في حقوق المواطن ودولة القانون، واجه المصلحون الليبراليون العرب والأتراك أو حتى الإيرانيون اثنان فكرياً هائلان. ذلك أنه كان يجمع من جهة المحافظين الإسلاميين الذين لا يقبلون أي تسوية ويطالبون بمواجهة الحملة الصليبية الاستعمارية المسيحية على الإسلام بالجهاد القادر على التعبئة من أجل الدفاع عن القيم التقليدية والدينية، ومن جهة أخرى المجددين الإسلاميين الذين يسعون إلى الخلاص ليس من باب الحرية وعلمنة المؤسسات السياسية، وإنما بإحياء الإسلام بالعلم والعقل، لكن دون المس بأسس المجتمع الإسلامي نفسها أو تبني المبادئ السياسية المقترنة بازدهار الحرية الفردية، حيث اعتبر هذا التيار أن تبني القومية الليبرالية خطراً، لأن انتشار هذا النموذج قد يحطم ما تبقى من السيادة الإسلامية للقوميات وبالتالي من التعاضد العابر المفترض بين الشعوب الإسلامية في النظام العالمي، تجاه الهيمنة التي تمارسها أوروبا على العالم.

إلا أن هؤلاء لم يضعوا في اعتبارهم أن التأسيس على أسس دينية يقود إلى نقاط شائكة. في الهند مثلاً حيث ازدهرت الأصولية الأسلمية على تحجر العلاقات بين الهندوس والمسلمين الذي فرضته السلطات الإنجليزية أدت حرب انفصال المسلمين عن الهندوس إلى قتل مليون شخص. وبعد سنوات من نشأتها، انشطرت دولة باكستان المبنية على الهوية الإسلامية، حيث أن السنغاليين وهم مسلمون أيضاً وإنما لهم عاداتهم ولغتهم، وانفصلوا عن باكستان ليؤسسوا دولة بنغلاديش، وهذا يدل دون أي لبس على أن الهوية الدينية لا تؤسس الرابط الاجتماعي والوطني الأساسي. والجدير بالذكر هنا أن دولة باكستان بين عامي 1977-1988 عرفت نظاماً عسكرياً ديكتاتورياً إسلامياً من أشد الأنظمة الديكتاتورية تعسفاً، وأن تدخلها إلى جانب السعودية في الشؤون الأفغانية يهدف إلى تعزيز الحركات الأفغانية الأكثر عداءاً للحدثة.

الولايات المتحدة تعيش في مأزق مشابه أيضاً، فالدعم الكتف الذي تتلقاه إسرائيل من قبل الولايات المتحدة وأوروبا يضع على المحك مصداقية التيارات العلمانية في العالم العربي، كان من الصعب على الرأي العربي الخلق أن يفهم كيف يمكن للغرب العلماني، الذي قد تجاوز الأهواء الدينية، أن يتجاهل حقوق السكان الفلسطينيين الأصليين، وأن يدعم دون قيد أو شرط نشوء دولة تقوم على الهوية الدينية. وهي فرصة جاءت لصالح التيارات الإسلامية.

إلا أن الولايات المتحدة استطاعت احتواء هذه الجماعات الإسلامية فأعطتها الفرصة للحياة مقابل القضاء على الشيوعية. وفي الآونة الأخيرة، وفي حين أن سلسلة الانتفاضات العربية التي انفجرت عام 2011 قد اسقطت رؤساء ديكتاتورين مكروهين لم تقلق القوى الغربية من مجيء أغلبية برلمانية مؤيدة من ممثلين من مختلف القوى الإسلامية، جاءت بها الانتخابات

التعددية. هكذا عادت وبرزت مجددا اليوم التشكيلة الكوكبية نفسها المعادية للثورة التي تشكلت في الماضي لمكافحة القومية العربية العلمانية، أي المحور السعودي الأمريكي، الذي توسع بإسهام إمارة قطر الصغيرة والغنية جدا.





#### الإشكالية العلمانية لا تختصر في نموذج وحيد

إن الاستخدام العشوائي لشبكة التحليل الخاصة بالقضايا التاريخية الأوروبية المتعلقة بالسلطتين الزمنية والروحية، غالباً ما يوقع التشويش أو الغموض في طبيعة القضايا الحقيقية التي تميز المجتمعات الإسلامية المتسمة بتنوعها الهائل. هذا الاستيراد الأعمى لنموذج العلمانية الأوروبي وتطبيقه على المجتمعات المسلمة هو كسل فكري أكيد، يجب التخلص منه لفهم بشكل جيد طبيعة رهانات العلمانية في المجتمعات المسلمة.

#### "الصحة الإسلامية" وسطوة الوهابية السعودية على المجتمعات العربية

كانت هزيمة الجيوش العربية في 67 ثم الحضور القوي للمملكة العربية السعودية والثورة الإيرانية من أهم العوامل الرئيسية في التراجع السريع للقومية العربية ذات الطابع الوضعي العلماني، حيث روجت السعودية للصحة الإسلامية التي نظرت للعلمانية على أنها مؤامرة غربية لسلب المجتمعات الإسلامية شخصيتها ومنعها من استعادة أصالتها.

إن النظام الاستبدادي السائد في العالم العربي لغاية موجات التمرد 2011 هو ثمرة التواطؤ بين السلطة السياسية وعلماء الدين المحافظين المتصاعدين بشدة لانتشار المذهب الوهابي، حيث أتاح هذا التواطؤ قمع كل احتجاج اجتماعي أو وطني أو معاد للإمبريالية، وساعد على ازدهار سلطة رجال ازدهار السلطة الدينية المستبدة. وذلك بخلاف ان حركات التمرد هذه قد فتحت الطريق امام الحركات الاسلامية نظرا لتملكهم شبكات اجتماعية وفيه ومالية ضخمة، لتستمر نغمة معادة العلمانية وفيه تريد القضاء على الإسلام.

#### مفتاح العلمانية في العالم الإسلامي: استعادة حرية التفسير للنص المقدس

بدلاً من استخدام مفاهيم وأفكار الإشكالية العلمانية الأوروبية التي لا تناسب التطور التاريخي للمجتمعات المسلمة، ينبغي لمفكري العالم العربي والإسلامي بصورة عامة العمل على العودة إلى تراث الحرية الفكرية التي صنعت في الماضي عظمة الحضارة الإسلامية. في هذا السياق لابد من تشجيع العودة إلى فتح باب الاجتهاد وتأسيس حرية تأويل النص المقدس.

في أوروبا المسيحية، جرت المعركة في سبيل حرية تفسير النصوص المقدسة داخل المجتمع وليس باستيراد إشكالية داخلية، وقررت هذه المعركة في سياق الإيمان الديني نفسه لتقويض احتكار سلطنة الكنيسة وعقائديتها التي أصبحت متحجرة ورافضة لتقدم المؤسسات وتطورها. وليس في إطار الدعوة إلى الإلحاد والتخلي عن الأعراف الحمديّة والتقاليد المسيحية. حتى أن فلسفة الأنوار لم تسع إلى مناقضة أو مهاجمة النصوص المقدسة، وإنما التفسيرات المضادة لقواعد العقل.

يبيغى أن يتم العمل انطلاقاً من منطق الإشكالية التاريخية الخاصة بالمجتمعات الإسلامية وليس من منطق أيديولوجيات دخيلة وبالتالي غير مناسبة. وهذا بالتحديد ماي فعلته اليوم العديد من المفكرين العرب ذوي الجرأة والفكر النقدي الإصلاحية الإسلامي المستوحى كله من السياق التاريخي والبنية الأنثروبولوجية لتطور الدين الإسلامي بعد وفاة الرسول.

### الطائفية الدولية

هناك فوضى دولية حالية مبنية بشكل متزايد على الطائفية الدينية، كما يتضح من تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي 1969، كما أن الولايات المتحدة لا تكف في إدارتها للعالم عن إشهار إيمانها بالله وبالقيم الدينية ذات الصبغة الأصولية. أما في فرنسا، بدلاً من نقاش عميق تجاه العلمانية، فإن النقاش يدور حول حجاب التلميذات المسلمات مثيراً مشكلة " عداة الإسلام" وفي إسرائيل توجد الطائفية الأحق بالانتباه في العالم. لذلك واجهت دعوات العلمانية تحديات، تضراً لأنه وفي حالة نجاحها فإنسها ستسلب العديد من الدول أحد أهم محاور ارتكازها. والأنتقى من ذلك؛ أن بعض رؤساء دول وكبار مسؤولين مديين وعسكريين في بعض البلدان الديمقراطية ولا يترددون في غدار الأحكام السلبية واللعنات ضد الإسلام علناً.

### هل للديمقراطية وجود دون العلمانية؟

إن الديمقراطية كُلت، ومحورها العلمانية. ولكي تنجح الديمقراطية تماماً وتزدهر، يجب أن تتألق في النظام الدولي، ولكن هذا لا يمكن تحقيقه طالما أن القانون المعروف بقانون التدخل الإنساني أو العسكري يتعمم بناء على المصالح الجيوسياسية للولايات المتحدة، وعلى النحو ذاته ينبغي رفض نظام دولي يكون فيه الدين وأنواع الشعور الإثنية البدائية أداة من أدوات السلطة والنفوذ في أيدي الولايات المتحدة.

هناك عدة تحديات تواجه العلمانية الان:

- وجوب تحديد إشكالية العلمانية في مسألة استعادة حرية تأويل النص المقدس، للقادر على احتكار الفكر الديني الأكثر تحفظاً والمدعوم من قبل القوة المالية السعودية. في إطار هذه النزاعات كان رجال الأزهر أكثر شجاعة من العلمانيين أنفسهم، حيث ناوأ عن هذه الإشكاليات سنوات الغليان الثوري.
- المحافظة على التوازن الصحيح بين الحرية الفردية والتماسك الاجتماعي. حيث يشهد هذا الأخير اضطراباً إلى أقصى درجاته بسبب ارتفاع الظلم الاجتماعي الصارخ وتكدس الثروات في أيدي بعض العائلات. كما ينبغي تحقيق التوازن بين حقوق الطوائف الدينية والعرقية المناطقية في حضان كل مجتمع عربي وبين حقوق الفرد في استقلالية الفكر.
- حركات التمرد التي انفجرت عام 2011، حيث أنها عادت إلى قلب النزاعات الدستورية والأيدولوجية قضايا هوية الدولة وشرعيتها، فاحتدم الصراع بين أنصار الدولة العلمانية التي تقضى الشرعية الدينية وبين أنصار تعزيز الهوية الدينية للدولة.